صفحة شوقي الباقية

بقلم عباس محمود العقاد

كان « احمد شوقي » علما في جيله .

كان علما للمدرسة التي انتقلت بالشعر من دور الجمود والمحاكاه الالية ، الى دور التصرف والابتكار . فاجتمعت له جملة المزايا والخصائص التي تفرقت في شعراء عصره . ولم توجد مزية ولا خاصة قط في شاعر من شعراء ذلك العصر الا كان لها نظيرة في شعر « شوقي » من بواكيره الى خواتيمه . وربما تشابهت تلك الخصائص او اختلفت ، وربما تساوت او تفاوتت ، وربما كثرت او قلت ، ولكنها — على اية حال من حالاتها — موجودة على صورة من الصور في كلام شوقي ، محسوبة بين غرره وآياته هفواته، على نحو من الانحاء

ومهما تختلف معايير لنقاد ومذهبهم في تقييم لتراث الشعري الضخم الذي ابدعه شوقي ، فانه يبقى في ادبنا العربي المعاصر اعظم شعراء المدرسة الاصيلة المحدثه ، Néo classique ، احتفظ الشعر على يديه بعبقرية التعبير العربي الاصيل ، ودخل الشعر معه في آفاق طليقة جديدة ، ولقي الشعر تجديدا في الكثير من الصور والافكار والقوالب الفنية ، واخصها القالب الحواري المسرحي . واذا عدت قمم الشعر العربي من ابى تمام الى المتنبي الى غيرهما ، فشوقي احدى هذه القمم ، وليس هو ادناها ، بل لعله اعظمها ، لا يفوقه الا ابو الطيب المتنبي امتدادا حسنا في العلاء بينما يتفوق شوقي على المتنبي في اتساع قاعدته .

كان شعري الغناء في فرح الشرق وكان العزاء في احزانه
قد قضى الله ان يؤلفنا الجرح وان نلتقي على اشجانه !

من ذا الذي استطاع ان يوجز قصة كفاح الشرق العربي بتعبير اوقع واروع ؟

بقي ان للقصة تتمة لم يتح لشوقي ان يعيشها وهي اننا في هذا الشرق لن يؤلفنا الجرح وحده بعد اليوم ، ولن تؤلفنا الاشجان وحدها ، وانما يؤلفنا النصر ايضا وافراح النصر على الاستعمار والرجعية في ظل حياة من العزة والكرامة ، حياة من السيادة والحرية والعدالة والسلم ، الحياة التي تنمو فيها قوميتنا وانسانيتنا حق النمو ، وينمو لنا معها ادب قومي انساني يكون شوقي احدى معالم الطريق العظيمة اليه .

رئيف خوري

كان محمود سامي البارودي — مثلا — شاعرا رائع اللفظ بليغ العبارة ، وكانت تصدر عنه المتانة والفخامة ، وبلاغته بلاغة السراوة والجزالة ، وربما رجحته هذه المزايا على شوقي في ناحيتها . ولكن « شوقيا » يعوضها بما يضارعها او يفوقها في آياته ومأثوراته وهو سلاسة اللفظ وعذوبة السياق ، ورقة النغمة الموسيقية ، وبخاصة في منظوماته الاخيرة

وكان لحافظ ابراهيم مجاله في القوميات والمواقف الوطنية والمواسم الشعبية ، وكان مقام شوقي في القصر يحول بينه وبين الصراحة التي يستطيعها حافظ في مجاله الطليق ، بعيدا من مراسم السياسة وتقاليد الحواشي الملكيه . ولكن شوقيا كان في صف ينازع السيطرة الاجنبية التي طغت على الحاكم والمحكوم ، وعلى الامير والمأمور ، فلم يحجم عن المشاركة في المواقف الوطنية كلما اتفق فيها الوطن كله على الواغل الاجنبي وعلى السيطرة الخارجية . فحفلت دواوينه بالقصائد السيارة التي تناقلها الرواة ولا يزالون يتناقلونها ، وسمع العالم العربي منه كما سمع من « حافظ » في هذا المجال .

وكان التاريخ المنظوم معهودا في جيل شوقي وقبل جيله، ولكن القصيدة المطوله التي نظمها « شوقي » عن كبار الحوادث في وادي النيل — عمل مستقل المقصد ، مجتمع الاجزاء يصح ان ينفرد وحده في بابه ، كأنه شريط متسلسل من اشرطة الصور المتحركة ، يعرض للناظرين مواقف الدول والمناسك والاديان ، من أقدم عصور وادي النيل .

وكانت المسرحية المنظومة ، شعرا وزجلا ، قد اخذت في الظهور عند مولد شوقي او قبله ، ولكن مسرحيات شوقي اقرب الى وقائع التاريخ وحوادث الحياة ، وليست كسابقتها التي كانت على نسق كنسق العجائب والمغازي ، واسلوب كأسلوب البطولات في ادب الفروسية .

ونظمت المواعظ والامثال قبل ايام شوقي ، وفي ايامه . ولكنه هو قد نظمها مبتكرا ولم ينظمها ناقلا او مترجما على نمط الرواة السابقين

وجملة ما يقال عن مكان شوقي في مدرسته — مدرسة الانتقال من الجمود والمحاكاة الالية الى التصرف والابتكار — انه كان صورة كبيرة لتلك المدرسة ، تشبه الصور الصغيرة

في ملامحها ، ولكنها تكشف للناظر ما ليس ينكشف في الصور الصغيرة لمن يريد التحقيق والتحليل ، ومثله فيما بينه وبين زملائه من فرق كمثل الرسم الذي يكبره الباحث ليرى فيه دقائق الخفايا من الشيات والظلال ، فهو هدف المتأمل والناقد ، وهو ملتقى الانظار الفاحصة ، حيث ينبغي ان تلتقي للحكم على الصور جميعا، من محمود فيها ومنقود.

كان في موجز القول علما لمدرسة الشعر في مطلع النهضة الادبية التي بدات من منتصف القرن التاسع عشر ، وكان له حظ العلم في حالتيه : يلتف به شيعته في معسكره، وينتحيه الرماة من المعسكر الاخر ، الذي يناجزه ويدعو الى غير دعوته

وعن الشعر ـ دون غيره من اسباب الخلافات ـ نتكلم حين نعرض لذكر الخلاف في هذا المقام ، ومنه ذلك الخلاف بين مدرسة شوقي ومدرسة التجديد التي نشأت عند اوائل القرن العشرين ، وكنت اسهم فيها مع الزميلين النابغين : عبد الرحمن شكري وابراهيم المازني رحمه الله

ولا بد من كلمة عن هذا الخلاف في هذا السياق ، ان لم تكن كلمة احاطة بموضوعها من جميع اطرافه ، فهي كلمة بيان تغني في هذا المقام

كان مدار الخلاف على امرين : يرجع اولهما الى النظم والتركيب ، وخلاصته ان القصيدة هي وحدة الشعر ، وانها خليقة من اجل هذا ان تكون بنية حية متماسكة ، تصلح للتسمية وتتميز بالموضوع والعنوان

والآخر يرجع الى لباب الفن في الشعر كما يرجع اليه في سائر الفنون ، من تصوير ونحت وموسيقى وغناء وتمثيل ، وخلاصته ان الشعر تعبير عن النفس الانسانية في الطبيعة وفي الحياة ، وليس بالتعبير عنها كما يحكيها لنا العرف في جملته ، دون التفات الى الاحوال المتغيرة بين الآحاد والسمات ... وان الفرق بين المنهجين كالفرق بين مصور ينقل النماذج الشائعة بمقاييسها التقليدية ، ومصور ينقل عن الطبيعة والحياة

فلا يطلب من الشاعر ان يصف الجمال على وتيرة العرف المطرد على اختلاف الواصفين والموصوفين ، ولا ان يلزم العاشق نمطا من الغزل والشكوى قلما يتبدل منه غير الالفاظ والاوزان ، ولا ان يفصل المديح كما نتمثله في نماذجه المتوترة ، متفقا بين جميع الممدوحين وفي جميع المواقف والاطوار ، وانما يطلب من الشاعر ان ينقل من الطبيعة الحية ، ويندر ان تتفق الطبيعة الحية في حالتين ، ويندر ان تتفق في حالة واحدة بين زمنين ، وعليه ان يعدل عن النماذج المشتركة التي يتساوى فيها الغيب والشهود ، ويصح ان يقال فيها ما قبل العيان وبعد العيان ، بل يقال فيها ما يقال بعيدا من كل عيان

ولقد وجد شعر النماذج في شوقي رسوله المبين ، بل خاتم رسله اجمعين ، فأبطاله من الممدوحين والمرثيين طراز في مراتب المجد التي يرتضيها السمت والهيبة ، وفضائل الاخلاق في قصائده هي الفضائل التي اصطلح عليها العرف وتتابعت بها معايير الحمد والثناء ، وعواطف الانسان هي العواطف التي رسمتها لنا تقاليد الزمن ، في احوال المحبين او الطامحين او اداب الاباء والبنين ، وآيته فيما عرض له من ذلك كله ـ تلك القدرة البارعة في تجويد الصناعة التي لا تفوقها قدرة في عصره ، ونكاد نقول في عصور الاقدمين والمحدثين

ومهما تتعدد الاراء والاذواق في النظر الى شعر النماذج، فلا بدله من صفحة باقية في كل ادب وكل لغة . وصفحته الباقية في اللغة العربية مقرونة باسم « شوقي » في الادب الحديث يجدد ذكراها وتجدد ذكراه ، ويقوم عليها حقه في البقاء ، ويتردد حولها صوته وصداه .

عباس محمود العقاد

صدر عن دار بيروت للطباعة والنشر

	ق.ل.
* معنى الثورة للدكتور جورج حنا	١٥٠
* معنى القومية العربية » »	١٧٥
* خواطر حول الجمهورية العربية المتحدة للدكتور جورج حنا	١٧٥
* اباريق مهشمة لعبد الوهاب البياتي	١٥٠
* عبد الوهاب البياتي والشعر العراقي الحديث	١٥٠
* بخاري لصدر الدين عيني	٣٠٠
* توماس غورديف جزءان لمكسيم غوركي	٣٧٥
* مولد انسان	١٠٠
* ابعد من موسكو ومن واشنطن لميخائيل نعيمة	٣٠٠
* المساكين لدوستويفسكي	١٧٥
* هذه هي الديالكتية لبول فولكيير	٢٠٠
* هذه هي الاشتراكية ترجمة محمد عيتاني	١٥٠